

القومية حقيقة حياة ذات مضمون ايجابي انساني

لقد انطلقت فكرتنا من خطوط اساسية كبرى^(١)، تعتبر أولاً ان القومية حقيقة حياة لا يمكن تجاهلها ولا يمكن افناؤها وليس من الخير ان تتجاهل او تفنى، اذا ما فهمت فهماً سليماً، واذا ما بنيت على اسس انسانية متينة ايجابية، لادخل للتعصب والانكماش ولعوامل التفرقة فيها. لم يُظهر لنا التاريخ الانساني بعد ان القومية شيء طارئ عابر سطحي يمكن ان يتلاشى تبعاً لتبدل الظروف السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية بل ان ما يرينا اياه التاريخ هو ان القومية تتغلب على شتى التبدلات السياسية والاجتماعية وغيرها، وتظل حية حتى في حالة ضعفها وتراخي روابطها وغموض وعيها لذاتها.

والنظرة المتعمقة ترينا ان القومية، وان كانت تتأثر وتتغذى بكثير من العوامل الاقتصادية والاجتماعية، الا انها تظل أعمق من هذه العوامل وأرسخ قدماً وأبعد غوراً في التاريخ، فهي من صنع اجيال وقرون وهي نتيجة تراكم طويل وتفاعل عميق أوصل الى خلق صفات مشتركة وروابط روحية ومادية بين مجموعة من البشر أصبحت هي الشخصية المعبرة عن هذه المجموعة وهي المجال الطبيعي والحياتي الذي

(١) حديث القي في نادي المغرب بالقاهرة في ٢٢ آذار ١٩٥٧.

تنطلق فيه هذه المجموعة في تحقيق انسانيته.

والقومية ليست كما يمكن ان يوهم التفكير المنطقي السطحي درجة في سلم التطور والارتقاء، وان بينها وبين الانسانية فاصلاً اساسياً وتفاوتاً في الدرجة والقيمة، بل انها هي تربة الانسانية وهي المجال الحي لاختصاصها، وان الانسانية ليست وضعاً اجتماعياً أو سياسياً يمكن ان يتحقق تحققاً مادياً في التاريخ، بل هي روح واتجاه ومثل تنبث في تكوين الشعوب والامم وتلون حضارتها وتوجه سلوكها واخلاقها، فالانسانية مرافقة للقومية وليست لاحقة لها.

وإذا فهمنا القومية فهماً ايجابياً سليماً، فاننا لن نراها ولن نقيمها على صورة تعزل الامم بعضها عن بعض، وتوجد بينها الحواجز والاحقاد، بل نراها في سبيل التفاهم والتعاون الواقعي المجدي بين الامم، وسبيل التكامل والتنافس الايجابي لكي يكتمل المعنى الانساني بهذا التنوع، ولكي تكتمل الحضارة الانسانية بهذا التخصص. فبقاء القوميات لا يعني تعذر قيام روابط انسانية أعلى وأوسع من الرابطة القومية، فقد توجد روابط روحية او مادية دائمة او عارضة بين مجموعة من الامم، تربط فيما بينها سواء رابطة الدين المشترك بين عدد من الامم، او الوضع الجغرافي في قارة من القارات، او النظام الاجتماعي المتماثل او المتقارب، او الضرورة الاقتصادية للتعامل والتبادل، كما يمكن ان توجد روابط تدفع عدداً من الامم الى التفاهم والتعاون لدفع خطر معين، ولتغذية اتجاه جديد فيه خير لمجموعها ولمجموع الانسانية، كما يحدث الآن في التكتل الاسيوي الافريقي بين أمم عانت تجربة واحدة او متقاربة في معاناة الاستعمار مدة من الزمن وفي مكافحته والتحرر منه والسعي للدفاع عن نفسها ضد احتمال عودته، والعمل على اشاعة روح السلم والتعاون بين جميع الشعوب لكي يتقلص الاستعمار وينحسر ويخف أذاه وينعدم بالنسبة لهذه الامم الاسيوية والافريقية، وبالنسبة لشعوب العالم كله.

اذن فالشيء الذي نقوله ونؤمن به هو ان وجود شخصية للأمة، واضحة متميزة، نامية وناضجة، هو الشيء الايجابي المثمر الخير الذي يساعد على التعاون بدلاً من ان يعوقه، ويفتح الامم بعضها على بعض، ويوجد بينها التجاوب، وان فقدان هذه

الشخصية او انطماسها وغموضها هو المعرقل للتعاون وهو المغلق لنفوس الشعوب اذ أن الذي لا يعرف نفسه لا يستطيع ان يعرف غيره، والشعب الذي لا يحس بشخصيته وبالروابط التي تربط افراده بعضاً الى بعض، من العبث ان يشعر بروابط تتطلب جهداً أكبر وتعمقاً اكثر. هذا هو فهمنا الايجابي للقومية بأنها هي هذا المستوى الناضج الذي بلغته المجموعات البشرية نتيجة تفاعل قرون طويلة بين افرادها وبين الظروف الطبيعية والتاريخية التي مرت بها والتي نسجت فيما بينها روابط مادية وروحية مشتركة، اهمها واعلاها هي رابطة الثقافة.

هذه هي النقطة الاولى التي انطلقنا منها عندما بدأنا عملنا من أجل تحقيق اهداف الامة العربية في هذه المرحلة، في التحرر والحرية وفي الوحدة القومية وفي تبديل النظام الاجتماعي الفاسد، وان نستبدل به نظاماً تقدماً سليماً يضمن انطلاق مواهب المواطنين جميعاً، ويضمن الانسجام فيما بينهم، وزيادة الانتاج في وطننا وتكافؤ امتنا مع غيرها من الأمم، وتكافؤها مع مسؤوليتها التاريخية. فلم نفكر طويلاً في البحث والتنقيب عن مقومات الامة العربية، وهل لها من المقومات والروابط المشتركة بين جميع اقطارها وأبنائها ما يبرر وحدتها ووحدة نضالها ووحدة اهدافها. فذلك واضح يفرض نفسه فرضاً، ولا يجادل فيه الا المكابرون والا ذوو الاغراض من المستعمرين الذين ادخلوا التشكك في اذهان بعض ابناء شعبنا، واستغلوا حالة الجهل وحالة التفرقة، وحالة انخفاض مستوى الحيوية ومستوى الحضارة والوعي في امتنا، فأطلقوا هذه الشكوك ليتركونا نجادل في البديهيات.

ولم نران من واجبنا البدء في تقديم البراهين على قوميتنا ومبررات وجودها، لاننا لم نتصور هذه القومية تصوراً سلبياً، لم نتصور انها وجدت لتخاصم غيرها، ولكي تثبت وجودها وحققها ازاء قوميات اخرى، أولكي تدعي التفوق او حق السيطرة على غيرها اولتدفع التهمة عن نفسها. لم ننظر الى امتنا هذه النظرة المنفعلة السلبية، بل اعتبرنا هذا الوجود القومي يعلن عن نفسه بنفسه، وبمجرد استمراره وتغلبه على نواحي الضعف التي طرأت على الامة العربية طوال عدة قرون، والتغلب على المحن التي خلفها الاستعمار الخبيث الذي عمل جاهداً لتفكيك قوميتنا، فمجرد

استمرار هذا الشعب واستمرار شعوره برابطته وبتراحمه هو دليل على ان هذه القومية قائمة وباقية. . وانما التفتنا الى ما هو اجدى، التفتنا الى الناحية الايجابية، لالخصم أمماً أخرى، ولا لندفع عن أنفسنا التهم، بل لنصلح من شؤوننا، ونزيل عوامل الضعف، التفتنا الى محتوى القومية لبنني وعلها على أسس سليمة فعالة، وقلنا ان الشيء الذي يهم العرب في هذا الوقت هو ان يتحرروا من الاستعمار الاجنبي، وان يتحرروا من النظام الاجتماعي الفاسد الذي يخنق قواهم ويعطل طاقتهم، ويهدر امكانياتهم، ويتحرروا من التجزئة المصطنعة التي قطعت اوصال الجسم الواحد ويتحرروا من كل العوائق الرجعية التي تقيد العقل وتمنعه من التجدد والابداع، وتغل المجتمع بقيود العادات والتقاليد السقيمة التي لم تعد تتجاوب مع الحياة، هذا هو ما فهمناه من القومية. ان مشكلتها ليست في البرهان على وجودها وانما في تحقيق مضمون ايجابي حي لها.

٢٢ آذار ١٩٥٧